توتيكوتزيمي

عند الحفر في أرض المدينة القديمة،
اصطدمَ سنُ فأسي المعدني
بقطعةٍ من الحلي الذهبية،
بحجرٍ منحوتٍ،
بسهمٍ، بصنمٍ،
بإله بلا شكل محدد،
أو بالأسوار الضخمة لأحد المعابد.
تعملُ فأسي في أرض أمريكا المجهولة.

فأسٌ في يد شاعر لها مسمع متناغم!
تكتشف ذهباً وأحجاراً كريمة،
وأحجاراً ثرية ناعمة،
معبداً، أو تمثالاً مكسوراً.
ويمكن اكتشاف السر الهيروغليفي
الملهم.

من بين الضباب الزمني تتبعُ الحياةُ الغريبة
لشعوبٍ بادت،
الأسطورةُ الغامضةُ تضيء،
تكشفُ أسرارَ الجبال
التي تعلوها بقايا الآثار.

الأشجارُ العجوزُ تعرفُ المسيرات،
النضالَ، وطقوساً غابرة.
تنشدُ: ماذا تنشد؟
نشيداً لم يُسمع من قبل؟
بنى العصفور عشاً في فرع
(سمع هذا النشيد نساء "تولتيكا"[23]
ووشينَ بالأمير موكتيزومو القاهر)

---

[23]- تولتيكا، شعب من الشعوب التي عمرت المكسيك قبل وصول كولومبوس واكتشافه العالم الجديد، وأنشأ واحدة من أهم الحضارات دامت ما بين القرنين التاسع والحادي عشر الميلاد، وكانت عاصمتها "تولان" وهي "تولا" الحالية بالمكسيك.

فيما يمشي الفهدُ على الأوراق الجافة،
فطائر "الكيتزال"[24] يكشف لقوس قزح ريشته العظيمة،
وتدفعُ الآلهةُ ينبوعَ اللغة.
وعند هبوط المساء
ينبعُ الشفقُ مُلطخاً مظلته البربرية،
وينزعُ لغةَ موسيقى الريح
عن زنبقةٍ غريبة.

ويتنهد الشاعرُ نيتزاهوالكويوتي
ويخرجُ كاواكميتشين الإقطاعي النبيل للصيد،
يتبعُ صفاً مزدوجاً من سهامه البارعة.
ملامحهُ قويةٌ ومنتصرة.
يحملُ على جبهته دائرةً ذهبية
ويرى الشمسَ التي تصعدُ الغابات الضاجة
التي ترتعشُ فيها ريشةُ طائر "الكيتزال":

---

[24]– – طائر "الكيتزال" منقاره قصير وريشه ناعم وذيله طويل، يميل إلى الاخضرار عند الذكور ومنطفئ قليلا لدى إناثه، ويعتبر من الطيور التي تعيش على امتداد وسط أمريكا اللاتينية من المكسيك وحتى البيرو، ولكنه يتركز حاليا في جواتيمالا التي تتخذه شعارا على عملتها المحلية، وهو طائر متوطن يسكن المناطق الجبلية المرتفعة وفي أعالي أشجارها ولا يحب الهجرة، ويعتبر من الطيور الأسطورية في حضارة "المايا"،

إنه الصباحُ السحري للاستوائي المشتعل،
يسيرُ النهرُ المتدفقُ كحية كبرى،
تطفو على مياههِ الأوراق الجافة،
وينفثُ القماشُ الزجاجي تعرجات حادة،
الجسدُ المكعبُ الذي تجره السلحفاة،
أو ذيل التمساح الحديدي المجسم.

إلى جوار المستنقع المخضر،
على الأحجارِ الجافة،
ياقوتٌ، زجاجٌ، زفيرٌ،
ذباباتُ البخار الأرضي الطنانة
تمرُ ممزقةً النسيجَ الرقيق،
الكاملة بملمسها القطيفي الثري،
مروحةً الطينَ بمراوحها المزدوجة،
كما لو غيّبتها الفراشة الزرقاء.

تطن الغابات الطازجة بحرارة النهار،
ويطلقُ بخارُ الريح الأسود صرخته الحادة،
والصرصارُ يصعقُ الأخضرَ،
الحشائشَ الملتفة،
طائرُ الغابة يطلقُ صوتَه،
يطيلُ الأزيز احتراقه الخالد،
ويكررُ صوته رنين الواقع.

وتغزو السناجبُ الماهرةُ أشجارَ الافوكاتو،
ذيولُها مذبة رقيقة، وعينها الصغيرة تلمع،
وتحملُ أسنانها ثمار الأشجار المثمرة،
وبطيرانها السريع تطردُ الزنابير،
يمرُ المحتالُ والشقي الغامض،
منادياً الرفيقَ بضجيج حاد.

تطلقُ الغاباتُ البدائية زفيرَها الممتد،
تطيرُ الكيتزالاتُ المنزلقةُ عند أولِ صوت،
تدورُ حول الحياة الأرسطية،
وتنتظرُ السحليةُ إلى جوار الخضرة المخملية،
كإبنةٍ سريةٍ لجبل هندي،
تشجعُ "التيوتي"[25] الخفي للمعبد الأثتيكي المقدس.

---

[25]- يدعى أيضا "اورنيتو" وهو بطل إغريقي من القادة الذين هاجموا طروادة في المعركة الشهيرة ولكن بما أن الرياح كانت معاكسة فقد رغب في العودة إلى بلاده، وفي الطريق التقى الآلهة "أثينا" التي طالبته

يتركُ الإقطاعيُ الكبيرُ غابات الزمرد،
يسيرُ باتجاه قصره، تاركا الكنانة[26] خلفه،
الكنانة الذهبية الرقيقة التي تشع تحت الشمس الشقراء،
يسير حملة السهام من خلفه، وعلى أكتاف الخدم
الأرض المدماة، والوعول الجبلية
التي أدمتها العصي المطاطية الصلبة.

يسيرُ، يصلُ الزعيمُ النبيل إلى القصر المنيف،
يدخلُ من الأبواب البلوطية المربعة،
"اوزوتسكيج"، ابنته الرقيقة،
ترى الأب القوي،
وفجأة تُسمع ضوضاءَ مكتومة لصوتٍ عميق.
هل هو من الجبل المحيط بالمدينة؟
لا، أيها الإقطاعي، هذه الضوضاء من الشعب "البيبيلي"[27].

بعدم ترك المعركة، فغضب وأصابها بجرح في ساقها، وسار في طريقه باتجاه بلاده

[26]– الكنانة: جراب يضع فيه رامي القوس سهامه

[27]– اسم جماعة قبلية من السكان الأصليين تعيش في مناطق وسط أمريكا اللاتينية، جواتيمالا وهندوراس والسلفادور، ويتحدثون لغة "ناهوا" الخاصة بهم.

كعاصفةٍ بشريةٍ تدوي وتدمر
يصمُ المدينة بالهمهمة المرعبة،
يسيرُ أبناء "الهويتزول"[28] باتجاه القصر،
أولاً، يتزيون بمائة ريشة متعددة الألوان،
وكبار الكهنة، وعظماء الأثرياء،
الذين يحملون عباءاتهم برفعة وأنفة،

من خلفهم المحاربون، من ذوي الأذرع الشديدة،
من يحملونُ دروعاً من المعدن والقرون،
جنود "ساكولين"[29]، جنود "نيباج"[30]،
وأخيراً، الزهاريون[31]، والمتوحشون.
والجسدُ معقودٌ وأحمر بالوشم الأسطوري،
"سيليس" الجبال، بأقواس وكراج.

---

[28]- ملك اثتيكي حكم في الفترة من 1468 إلى 1503، بعد أن خلف شقيقه على عرش بلاده وفي عهده توسعت مملكة "تينوتشتيتلان"

[29]- تشير الكلمة إلى انتماء هؤلاء الجنود إلى النبلاء في بلادهم

[30]- إحدى القبائل الثلاث التي تشكل شعوب منطقة وسط أمريكا وأكبرها من حيث العدد

[31]- هذه الكلمة تعني: المتمردون، المتوحشون، الجندي صعب المراس.. ألخ

كما الصخرة يحيط النهر بالقصر،
ترتفع أصواته المطردة في الفضاء،
كصوتش جبل أو صوت عاصفة:
هناك شبابٌ أقوياء كالوحوش يزأرون،
وشيوخٌ تعّدوا المائة كالتمائم،
سحرةٌ يتوسلون بـــ"تاماجاستاد"[32] الكبير.

وفي المقدمة يسير بنبالة
"تاكيج"[33]، الشاعرُ المؤمنُ الشجاع،
الذي يشعُ من عينيه نور الرؤية.
يعلقُ في عنقه تميمةً "كتزالية"[34] من الذهب،
وفي أقدامهِ المشعّرة قطع من جلد الثور،
ويرفعُ جبهته، مترفعاً كأسد شاب.

---

[32]– اله قبيلة "تشوروتيجاس" التي تقيم في نيكارجوا وشمال كوستاريكا
[33]– تعني الشاعر المتمرد على الإقطاع
[34]– مصنوعة من ريش طيور الكيتزال

من الباب يُرى الإقطاعي منتصباً،
يرفع "تاجيك" ذراعيه، إشارته كسد
يحتضنُ التيارَ الكبيرَ المتوترَ والصوت.
"كواكومانتشين"[35]، متباهياً،
يعتمدُ على قوسه اللين،
وفي شفتيه علامات السخرية،
يرسمُ بحاجبيه دائرة الرعب.

دائرة يطلق منها سهم نظرته
على الألف رأس المتجمعة،
دائرةٌ كدائرة قوس العاصفة.
و"تاجيك" يتحدث إلى الأمير الذي يستمع إليه بهدوء:
وعليه ملامح الكلمة المرعبة،
كالرعد الإلهي كان غضب "تيتان".
"كواكومانتشين"، يحدثك الجبل بلغتي، الآن،
الأرضُ غاضبةٌ، والجنس البيلبيلي يبكي،
ولعنتك السنوية، حية-تاكوازين.
أنتَ وحشٌ جبانٌ يحكمُ قطيعاً.

---

[35]- آخر الإقطاعيين قبيل وصول الغزاة الأسبان إلى منطقة وسط أمريكا اللاتينية

لماذا أرقتَ دماءَ البيبليين
كفهدٍ جبلي، كواكومانتشين، كواكومانتشين؟

كواكومانتشين، الملكُ الثامنُ للمكسيكيين
كان عظيماً، إذا فتح أصابع يده
تغمم الشمس أكثر من مليون سهم،
كان عرشُه ذهباً خالصاً، ومجلسهُ،
يعظّم الحكيم كثيراً،
ويطلب نصيحة الشيخ،
هراوته كانت ثقيلة، يسميها "اهويتزول".

"كومانتشين" الملكُ الثامنُ للمكسيكيين،
كان عملاقاً، لو فرد أصابع يده
تغمم الشمس أكثر من مليون سهم،
كان عرشه ذهباً خالصاً،
ومجلسه من الحكماء إذا طلب منهم النصيحة،

أركانه مزينةٌ بالزمرد والجلود
والزعماءُ يحيطونَ به،
يخافون الصراعَ مع المكسيكي القوي،
كان كما الآلهة، السهم في يده
كالرعد البارق.

أراد يوماً أن يكون مسالماً،
وأن تتوسعَ ممالكه، كان هذا حقه،
وكانت في جواتيمالا أراضٍ خصبة،
وبكراً، وجبالٍ خالية،
أرسل الزعيم خمسة رجال لغزو الأرض،
بلا رماح، ولا دروع، ولا خوذات حربية،
بلا قوى ضاربة ولا قنابل عسكرية.

كانوا خمسةً من شعب البيبيل،
كانوا من آبائنا،
كانوا مزارعين، وفلاحين ومروضي حيوانات،
يعملون في سلام، ويبذرون النيلة،
يطبخون الملاط، يبيعونَ الجلودَ والطيورَ،
وهكذا أنشأوا ووضعوا قواعدَ حضارة البيبيل
الزاهرة.

البيبيل، تعني الطفل،
إنها عبقريةٌ ووضوح،
كان بينهم شيخٌ بفرسه الأبيض،
ونظر إليه الجميع بجلال،
وجاء غلامٌ جميلٌ يمزقُ الجبال طرقاً
ويقذفُ النسورَ بسهامه الطائرة،
كان يغني فرحاً تحت العاصفة.

مات الملك، والموت سيد كل الملوك،
كوّن آباؤنا قوانيننا المقدسة،
تحدثوا مع الآلهة بلسان الحقيقة،
وفي يوم من الأيام، وفي لحظة مضيئة
طلبَ أحد الشيوخ القسم،
إنه لن يشرب من دم أضحية بشرية،
فالدمُ سكونٌ أحمر للإله.
لهذا لم يقدم البيبيل التضحيةَ البشريةَ أبداً،
نقطعُ من الموز الفواح عناقيداً،
لنقدمه للإله المقدس الأمين،
وتسيلُ السكينُ دمَ الحيوان،
لا دم بيبيلي بعد الآن، أيها الكوماتشين الملحد،
بعد أن قدمته أنتَ بالأمس في محرقتك.

"أنا الكاهن الإقطاعي المقاتل!
تماماً كما قال الزعيم،
إنه يصرخ في الناس:
"إذا كان النمرُ قد ابرز مخالبه، فليكن إذن ما يريد"
وكما العاصفة، كانت صرخات البشرية،
تهدأ لحظة لتعود من جديد.

"سهامُ للمقاتلِ، يطالبُ الإقطاعي القوي،
وكما لو لم يكن هناك من يشيرُ إلى الهجوم،
يظلُ مطلقو السهام في سكون، بلا صوت
"يا مطلقو السهام، الموت للنمر"،
يجيبُ هنديٌ غاضب،
يرفعُ الزعيمُ ذراعيه فيقفُ المقاتلُ
ممسكاً بدفعة السهم المنطلق.

والزعيمُ:
"إنه لا يليق بالسهم أو الرمح!
الأرض تهتز مطالبةً بالانتقام!
إلى الأحجار أيها البيبيليون،
عندها صمتَ الصوتُ الغاضبُ
للمنتقمين وبقيَ الزعيمُ الغاضبُ
غارقاً في الوحل ممزقاً،
شُوهدَ رجلٌ يسيرٌ مغنياً بصوتٍ مرتفع
أغنيةً مكسيكيةً.
كان يغني السماءَ والأرضَ
حمداً للآلهة، ولاعناً الحرب.
طالبوه: "هل تغني أنتَ السلامَ والعملَ؟"
"نعم".
"خذ القصرَ والحقلَ ومعداتِ الحرب،
حيي آلهتنا، وقدِّر شعبَ البيبيل"،
وهكذا بدأت مملكة "تتيكوتزيمي".

(النشيد المرتحل، 1907)